

أما لا تتساءل فقط ، لم وجد العالم ؟ ، بل نحن تتساءل أيضاً : « لماذا كان العالم حافلاً بكل تلك الشرور ؟ » (١) .

ولكن إذا كان الشر ينسب أظافره الحادة في كل موجود ، لمجرد أنه كائن متناه محدود ، فإن الإنسان وحده هو الذى يستشعر الشر بوصفه حداً من الحدود ... إن الشجرة الوحيدة المنعزلة لا تشعر بالشقاء ، والمنزل المتهتم المتداعى لا يعرف معنى الشقاء ، وأما الإنسان فهو — كما قال بسكال — موجود شقى يعرف أنه شقى (٢) ! ولا ينحصر شقاؤنا فى شعورنا بالنقص ، والحرمان ، والألم ، والملل ، والمرضى ، والشيوخوخة ، وشتى مظاهر الفناء ، بل إن هذا « الشقاء » ليرتبط ارتباطاً وثيقاً بشعورنا الأخلاقى نفسه . والواقع أنه مهما كان من نقاء إرادتنا ، فإنه لا بد من أن تجول بخاطرنا فى بعض الأحيان نزعات شريرة نجزع لما فيها من خبث أسود مخيف ، حتى لنكاد نصاب بدوار عقلى عنيف ! وينظر الإنسان فيجد نفسه محاطاً من كل صوب بتلك القوى الخبيثة البغيضة التى تترصد به الدوائر ، دون أن يكون فى وسعه إغلاق نافذته أو إرخاء الستائر ! وهل كانت تلك النزعات الشريرة قوى خارجية محضة ، حتى يفلت من دونها الأبواب ، أو يزعم لنفسه أنها مجرد سراب ؟ إن الشر ليكاد يدس أنفسه فى كل ما تحقق من أفعال ، حتى أننا قلما نعثر على فعلة يأتيها الإنسان دون أن يكون فيها أدنى أثر من آثار الشر ، فكيف لا نعتزف بأن فى مجرد ارتداد الشعور الأخلاقى على نفسه ضرباً من الشقاء ؟ أليس الشر فى صميمه إنما هو مجرد تعبير عن حالة انقسام الذات على نفسها ؟

إن التجربة لتدلنا على أنه مهما كان من تعدد أنواع الفضائل ، بل مهما كان من اختلاف أشكال الضمير أو الشعور الأخلاقى ، فإن من شأن « الخير » بالصيرورة أن يوجد فيما بين تلك الأنواع العديدة من الفضائل ، وأن يؤلف فيما بين تلك الأشكال المختلفة من الضمائر ، فى حين أن المظهر الأول للشر هو الانفصال والانقسام والتنافر

(1) A. Schopenhauer : « Le Monde comme Volonté et comme Représentation. » trad. franç.

في وجه ذلك الموجود العاتى الذى يحطم شتى القيود ؟ أليس الأجدى علينا وعليكم أن ننسى — أو ننسى — كلمات التناهى والشر والفناء ، لكن نقول مع بعض مفكرى هذا العصر إن بطل القرن العشرين لم يعد هو الشيطان ، ولا هو الله ، ولا هو بروميشوس ، وإنما قد أصبح هو الإنسان ؟ أليس من الأفضل لنا ولكم أن نعمل على خلق « الإنسان الجديد » ، بدلا من أن نجترى بالتحسر على الضعف البشرى ، وإبراز مناحى هذا الضعف ، وتجسيم ما يترتب عليه من نتائج ؟

تلك هى الاعتراضات التى تثار فى وجه كل من تحدته نفسه بأن يزيح النقاب عن بعض « حدود الإنسان » ، فإننا نحب أن نوحى إلى أنفسنا بأنه ليس لإمكاناتنا حدود ، وأنه ليس فى قاموس البشرية لفظ « مستحيل » ! وإذا كانت بعض المذاهب الفكرية الحديثة قد لقيت رواجاً كبيراً عندنا ، فذلك لأنها تمجد الحرية ، وتعلمى من شأن الإنسان ، وتنادى بأننا نحن الذين نخلق القيم ونبدع المعايير ! ولا يقتصر الإنسان الحديث على القول بأن الإنسانية لا تثير من المشكلات إلا ما هى قدرة على حله ، بل إننا نراه ينادى على لسان نيتشه ( وغيره من الفلاسفة الإنسانيين ) بأننا قد اخترعنا « الله » لكى تغطى كل ما لدينا من ضعف ، ونفسر كل ما فى تجربتنا من ثغرات ! ولكن مشكلتنا اليوم — فيما يقول البعض — لم تعد هى ما إذا كان فى وسعنا أن نؤمن بالله ، بل ما إذا كان فى وسعنا ( وبأى معنى ، من المعانى ) أن نؤمن بالإنسان . ويضيف إلى ذلك بعضهم أن « معظمنا اليوم لم يعد يؤمن بأنه متعال تكمن فيه الحقيقة الأولية الأبدية ، تلك الحقيقة التى من شأنها أن تكون حقيقة قبل الإنسان ، وحقيقة أيضاً بعد الإنسان ، فلا يكون هو منها إلا بمثابة المستأمن على ودیعة ؛ وإنما أصبح الإنسان فى نظرنا من الآن فصاعداً هو الذى يخلق حقيقته ويوجه مصيره فى صراع عنيف من أجل الوصول إلى ذاته ! »

حسنا ، ولكن هل يكون معنى هذا أن نضرب صفحاً عن كل ما تزخر به تجربة ذلك الموجود البشرى من « مواقف وجودية » هامة تعبر عن علاقاته بالعالم ، والآخرين والوجود العام نفسه ؟ هل نخرس لسان بسكال مثلا حينما يتساءل فى خطراته فيقول : « حينما أتأمل الأمد القصير الذى كُتب على أن أحياه ؛ ذلك الأمد المستغرق فى الأزلية السابقة والأبدية اللاحقة ، وحينما أفكر فى ذلك الحيز الصغير الذى أشغله ( بل وأشهده أيضاً ) ؛ ذلك الحيز الغارق فى محيط لانهائى من العوالم التى تجهلنى وأجهلها ، فإنه